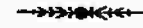


البلاغة وعلم النفس

للاستاذ على الماري



لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيباً من جهود الباحثين المعاصرين، ولعلها كذلك أحوج هذه العلوم إلى التجديد والتهذيب ولكننا نستطيع أن نقول — في غير غرض من عمل أحد — : إن الأبحاث التي طالعنا بها هذا المصنف في هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه الأعلام

ولقد شاع في رسائل المعاصرين التي على علماء البلاغة، ورميهم بالجهل والتقصير أحياناً، وهذه طريق لا تؤدي إلى النجاة. ولو أنهم إذ هدموا بنوا لكان الأمل قوياً في أن نظفر بشيء. ومن حق أسلافنا علينا أن نذود عنهم، وندفع ما يلحق بهم من ظلم وجحود.

قرأت رسالة صغيرة للأستاذ الشيخ (أمين الخولي) المدرس بجامعة فؤاد الأول عنوانها (البلاغة وعلم النفس). تحدث فيها عن صلة قديمة بين الأبحاث البلاغية ومظاهر النفس الإنسانية، ولكنه نعى على الأسلاف أنهم لم يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم) ورأى أن هذا الربط في الدرس وفي غير الدرس ضروري، بل هو ضروري لفهم إعجاز القرآن وتفسيره حيث يقول (فالنظر الصائب إليه — يعني القرآن — والفهم الصحيح له، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية، ونواميس روحية، فليس يصح أن نعمل عبارة من عباراته، أو محتج للفظ في آية من آياته، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه إلا بموقفه. كله في النفس، وبما كشف العلم عن هذا الموقع، وما سبر من أغواره فبالأمور النفسية لا غير (كذا) يطل إيجازه وأطنابه، وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وتكراره وإطالته، وتقسيمه وتفصيله، وترتيبه ومناسباته، وما قام من تحليل هذه الأشياء وغيرها (كذا أيضاً) على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتحليل أو هو أشبه شيء به)

ونحن إذا طرحنا جانباً مناقضة الأستاذ لنفسه بين محاولته تحليل إعجاز القرآن، وبين إصراره على أن خير الآراء في الإعجاز هو رأي السكاكي وجملته أن الإعجاز لا يعمل. إذا طرحنا هذا وجدنا الأستاذ انساق وراء الفكرة التي سيطرت على قلبه، ولكننا مع ذلك نتنظر حتى نرى مبلغ صدق هذا من الأبحاث التي رعد بها الكاتب وقد مر عليه دهر ولم يطالبنا بها وإن كنا نجزم بأن دعواه أن كل تحليل لأسلوب القرآن لا يقوم على أساس نفسي ادعاء وتحلل نجزم بأن هذه مبالغة لا تمت إلى الصواب بصلة.

وتترك هذه الدعاوى وأمثالها إلى حين يؤيدها بأمثلة لرد على هذين المثاليين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما في رسالته، وادعى فيهما أن القدائي وقفوا عند تعليقات جافة ركيكة، ولم ينظروا فيهما إلى الأمر النفسي قط. وسرى أن ما وصمهم به ليس صحيحاً، وأن ما ذكر أنه وصل إليه هو الذي ذكره علماؤنا الأجلاء قال: (نحن نقرأ مثلاً في بيان ميزة الأسلوب المروف عندهم باسم تأكيد المدح بما يشبه الثم قولهم: إن سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشيء، بيينة، ويفسرون ذلك بأن القائل علق تقيض المدعى وهو إثبات شيء من العيب بالمحال، والمعلق بالمحال محال، فندم العيب محقق. كما تقرأ لهم وجهاً آخر لهذه الأبحاث هو: أن الأصل في مطلق الاستثناء الاتصال فذكر أداته قبل ذكر المستثنى منه يوم إخراج شيء مما قبلها فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح، وتحول الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع جاء التأكيد لما فيه من المدح على المدح والأشمار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنىها

ولعل السر النفسي لذلك فيما يظهر هو ما في هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التي تكسبه طرافة وتثير حوله تنبهاً والذي نلاحظه هنا أمور: —

(١) أن التحليل الأول أحد تعليقات لهم ويمكن إرجاعه إلى أمر نفسي، بل هو في الحقيقة من أخص أمور النفس، فهو فكر مرتب، ومنطوق محكم، وليس شيئاً مارد به من أنه يترتب عليه أن «عبارة التوثيق المؤكدة ولغة الإشهاد المسببة هي الفصحى وأظن أن الفرق بين الاثنين واضح، والمغالطة بينهما أوضح

(٢) أن المفاجأة التي تمدح بأنه وصل إليها إنما مآتها انقطاع الاستثناء وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن أن يجيء آخره أليفاً لأوله ويستقر فيها اطمئنان لذلك فإذا انقطع الاستثناء فوجئت بما لا تتوقعه .

(٣) أنهم ذكروا لهذا علة نفسية ؛ قال في الطول بعد أن ذكر التعليلين السابقين « مع ما فيه من الخلابة وتأخير للقلوب » وفي هذه الكلمة الأخيرة (تأخير للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد !!

أما المثال الثاني فحيث يقول « ومن ذلك مثلاً أنا نسمعهم يقولون أطبق اللغز على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ... الخ ثم لا يعلمون شيئاً من ذلك كله إلا بالفكرة السابقة من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم . أنه كدعوى الشيء ببينة » . ولعلنا نقف طويلاً متمجبين من جرأة أستاذ في الجامعة ، ورئيس طائفة تدعى التجديد في علوم البلاغة ، حين نعلم أن صاحب الصناعتين عقد فصلاً للموازنة بين الحقيقة والمجاز ذكر فيه أكثر من أربعين مثلاً وعلل لكل مثال بعلته ، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحداً من هذه العلل ، وأنه في أول الفصل علل تعليلاً عاماً بأمر نفسي فقال لا وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في النفس نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة « فكيف يسوغ بعد هذا لأستاذ أمين في العلم أن يطرح هذا كله ليقول إن علماءنا لم يعرفوا تعليلاً نفسياً واحداً ؟ وهل يرى أن الباحث لا يكون إبداعاً معلوماً إلا إذا ادعى أن الأوائل لم يتنبهوا لما وصل إليه ؟

ولعل أقضى على كل ادعاء إذا ذكرت كلتي اثنتين تشهدان بأن علماء البلاغة لم يقتصرُوا على تمليلات ركيكة جافة ، وإنما وصلوا في بعض الأحيان إلى اللباب المنتخب

(١) كتب ناشر كتاب أسرار البلاغة في مقدمته قال : « ينبغي لقارئ هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جملة علوم البلاغة البيان والمعانى والبدیع - من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية - لا مجرد مواصفات واصطلاحات - فإنه يقيم الدلائل ، ويسوق الحجج على كون

البليغ من الكلام بأشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلي أو اللغوي من قواعد البيان ، أو براعة نكت المعاني في التعريف والتشكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك إنما كان بليغاً لأموور حقيقية في عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام في أنفسهم »

وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن ينهنا إليه ، بل جعلوه أصلاً تؤلف على ضوءه الكتب (٢) قال الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسي هذا الأمر

الذي ادعى الأستاذ أنهم لم يذكروا له تعليلاً نفسياً « وإن أردت اعتبار ذلك - يعني تأثير التمثيل في النفس - في الفن الذي هو أكرم وأشرف (يقصد فن الوعظ) فقارن بين أن تقول : إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره . وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه ... الخ

« فأما القول في العلة والسبب ، ولم كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومآتاه وما الذي أوجبه واقتضاه فغيرها »

« وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسباباً وعللاً كل منها يقتضى أن يضخم المعنى بالتمثيل وببذل ، ويشرف ويكرم ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن يخرجها من خفي إلى جلي ، وتأنبها بصريح بسم مكش ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأنه العلم المستفاد من طرق الحواس أو التركيز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة بفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأثر أعني الأثر من جهة الاستحكام والقوة . وضرب آخروهم بما يوجب تقدم الإلف كما قيل ما الحب إلا للحبيب الأول .

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أسس بها رحماً ،